الفصل الرابع
بعث أسامة

لم تكن نذر الانتقاض فى بلاد العرب لتخفى على أبى بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة . وكيف تخفى عليهم وقد كان ما شجر بينهم فى سقيفة بنى ساعدة جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ؟ ! أفيُلقى خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله فى شأنها ؟ أم تراه يجرى على خُطة الرسول فى تأمين التخوم بين العرب والروم ، تاركاً أمر هذه الفتنة الداخلية إلى تطور الحوادث ؟ .

أول أمر أصدره الخليفة الأول

لقد كان أول أمر أصدره بعد أن تمَّتْ له البيعة بالخلافة أن قال : « لِيُتِمَّ بَعْثُ أسامة » .

وأسامة هو قائد الجيش الذى أمر النبى بتجهيزه من جِلَّة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين فى مُؤْتة وفى تَبُوك . ذلك أنه ، عليه السلام ، كان يخشى دائماً أن يدهم الروم المسلمين ، متأثرين بما بين الدين الناشئ ودينهم المسيحى من خلاف ، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين بعد أن أجلاهم النبى عن المدينة ، وعن تيماء ، وفدك ، وعن أكثر المواطن التى كانوا يقيمون بها . ولعل ما حدث بمؤتة وتبوك جعله يضاعف العناية بحماية التخوم العربية الرومية . فقد سار جيش المسلمين إلى مؤتة فاستشهد من قوّاده زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم داور خالد بن الوليد بالجيش حتى عاد به إلى المدينة سليماً وإن لم ينتصر . وقد سار عليه السلام على رأس المسلمين إلى تبوك ، فكانت مسيرته نذيراً حمل خصومه على التراجع إلى ما وراء حدودهم دون قتال . لا عجب وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم أن يجهز النبى جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز

هذا الجيش بعض سياسته فى تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ذوى البأس فى ذلك العهد .

وصية رسول الله إلى أسامة بن زيد

وكان أسامة حَدَثًا لمَّا يبلغ العشرين . وإنما ولاّه رسول الله على الجيش ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه بمؤتة ، وما يعوّد الشباب الاضطلاع بجسام التَّبِعات . ولقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يُسمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك دِرَاكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانمًا مظفراً .

حب النبى لأسامة ابن زيد

تذمَّر كثيرون منذ اليوم الأول من تعيين حَدَث كأسامة على رأس جيش يضم جِلَّة المهاجرين والأنصار وتحدثوا فى ذلك . صحيح أن أسامة كان موضع عطف النبى منذ طفولته ، وأنه لُقِّب لذلك « حِبّ النبى وابن حِبِّه » . ولقد بلغ من إعزاز النبى إياه أن أردفه وراءه عند ذهابه إلى مكة فى العام الثامن للهجرة وأدخله معه الكعبة . وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته ، حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين فى طريقهم إلى أحد ، وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه . ثم إنه أبلى من بعد فى حُنَيْن أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد . لكن المتذمرين كانوا يرون ذلك شيئًا ، وتَوَلِّى إمارة جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين شيئًا آخر . ولقد بلغ تذمُّرهم النبى وهو فى مرضه الأخير وجيش أسامة مقيم بالجُرْف يتأهَّب للمسير ، فأمر نساءه فأراقوا عليه سبع قِرَب من ماء حتى تنزل عنه الحمَّى ، ثم خرج إلى المسجد وقال بعد أن حمِد الله وصلّى على أصحاب أحد : « أيها الناس ، أنفِذوا بَعْثَ أسامة . فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة وإن كان أبوه لخليقًا لها » .

تذمر كثيرين لتوليته إمارة الجيش

ولما اشتد المرض بالرسول لم يتحرك جيش أسامة من الجُرْف . روى عن أسامة أنه قال : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أصمتَ فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ ، فأعرف أنه يدعو لى » . وفى

ساعة الصحو الذى سبق وفاة الرسول صبح يوم الوفاة استأذنه أسامة فى السير بالجيش فأذن له . لكن حدوث الوفاة بعد سويعات ردّ أسامة والجيش إلى المدينة كرّة أخرى ، ثم كان أسامة مع أهل البيت الذين تولوا جهاز الدفن ، فكان هو وشُقْران مولى النبى يصبان الماء على جثمانه وعلىٌّ يغسله وعليه قميصه .

تصميم أبى بكر على بعث أسامة

فلما أمر أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة بعد أن تمّت بيعته عاد المسلمون إلى تذمُّرهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة للخلاص من موقف لم يرضوا عنه ، ورأى بعضهم ما كان من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وما ترامى إلى المدينة من أنباء العرب واليهود والنصارى وتحفُّزهم بعد موت النبى للوثبة بالمسلمين وبدينهم ، فقالوا يوجهون الكلام إلى أبى بكر : « إن هؤلاء جُلّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . قال أبو بكر : « والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تَخْطَفُنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القُرَى غيرى لأنفذته » .

وقيل إن أسامة لمّا رأى ما عليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبى بكر فيستأذنه فى أن يعود بالجيش ليكون عونه على المشركين فلا يَتَخَطَّفون المسلمين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبى إلا أن نمضى ، فأبلغه عنّا واطلب إليه أن يولّى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة » . وأبلغ ابن الخطاب أبا بكر رسالة أسامة ، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائره وقال : « لو خَطِفَتْنى الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أمّا رسالة الأنصار أن يولى عليهم رجلا أقدم سنًّا من أسامة فقد وثب لها أبو بكر وكان جالسًا فأخذ بلحية عمر وقال مغضبًا : « ثَكِلَتْكَ أمك وعدمتك يابن الخطّاب ! . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! » . ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال : « امضوا ، ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله » .

هذا الحديث فى رواياته المختلفة يصوّر لنا سياسة أبى بكر أول ما تولى

« لا أدع أمراً يصنعه رسول الله إلا صنعته »

الخلافة. وهذه السياسة تتلخص فى قوله لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبته بميراثها عن أبيها : « إنى والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . وهو قد أعلنها إلى الناس ساعة قال لهم : « لِيُتَمَّ بَعْثُ أسامة . ألاَ لا يَبْقَيَنَّ بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرْف » . فقد وقف بينهم خطيباً بعد أن ردّ المعترضين منهم وقال : « يأيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلّفونى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات . وإنما أنا مُتَّبِعٌ ولستُ بمبتدع . فإن استقمتُ فتابعونى ، وإن زُغتُ فقوّمونى . وإن رسول الله قُبِض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمَظْلَمَة ضرْبة سوط فما دونها . ألاَ وإنّ لى شيطاناً يعترينى ، فإذا أتانى فاجتنبونى . . . » ثم حثهم على العمل الصالح قبل أن يجىء أجلُهم ، وأن يعتبروا بالآباء والإخوان ، وألاّ يغبطوا الأحياء إلا بما يغبطون به الأموات .

إنما أنا مُتَّبِعٌ ولست بمبتدع ، ولن أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ؛ هذه سياسة الخليفة الأول . ولأبى بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته . فهو قد صحب رسول الله على ما رأيت منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيماناً لا يكبو ولا يتزعزع ، وكان لاتصاله القلبى والروحى برسول الله يعرف من أمره مالا يعرفه غيره . وهو وحده الذى قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » . وأنت قد رأيت من صحبته وإخائه وإيمانه فى حياة النبى ما لم يبلغه عمر ولا علىّ ولا أحد غيرهما من أمس المسلمين به صلى الله عليه وسلم صلةً وقربى . فلا جرم كان اتّباعه النبى اتباعاً صحيحاً صادراً عن إيمان وبينة ؛ إيمان يجعله مطمئناً إلى أنه لن يُخطئ ما اتبع الرسول ، وبينة تجعله يسلك الطريق التى يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها .

أبو بكر يشيع جيش أسامة

سمع الناس مقالة عمر بعد عوده إليهم بالجُرْف يبلّغهم رسالة أبى بكر ،

فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة طوعًا أو كرهًا . وخرج أبو بكر بعد ذلك حتى جاء العسكر ، فأشخصهم وشيّعهم وهو ماش وأسامة راكب ليزيدهم لإمارة أسامة إذعانًا وتسليمًا . وكأنما غلب أسامة الحياء أن يرى هذا الشيخ الوقور صاحب رسول الله وخليفته على المسلمين يسير إلى جانبه ، ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف ، فقال : « يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن » ، قال أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب وما عليّ أن أغبّر قدميّ في سبيل الله ساعة ! » . فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر .

لعمرك ما عسى أن يقول المتذمّرون بعد هذا الصنيع وقد بايعوا أبا بكر بالأمس ليَلِيَ أمر المسلمين جليله ودقيقه ! . والذين أذعنوا من قبل كرهاً لم يسعهم بعد هذا التصرف الحكيم إلا أن يرضوا أو يتعرضوا للقالة ويُتّهموا بالأثَرة . وكثيراً ما كان للخوف من رأى الغير فينا وحكمه علينا سلطانٌ على تصرفاتنا وأعمالنا يعدل سلطان اقتناعنا الذاتي ، وإن اختلفت البواعث وتباينت النيّات .

وصية الصديق لجيش أسامة

وآن لأبي بكر أن يودع الجيش ، فوقف في رجاله خطيبًا وقال : « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلّوا ، ولا تغدِروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخًا كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقِروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . وسوف تَقْدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقَون أقوامًا قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفِقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون » .

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش : « اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم . ابدأ ببلاد قُضاعةَ ، ثم ائت آبِل ، ولا تقصّرن في شيء

من أمر رسول الله ، ولا تعجلن لما خلفت عن عهده » .

مسيرة الجيش إلى البلقاء

وسار الجيش وعاد أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى المدينة . سار هذا الجيش وقائده الشاب على رأسه يقطع البيد ويتخطى المفاوز فى هذه الأيام الشديدة القيظ من شهر يونية . وبعد عشرين يوماً من مسيرته بلغ البلقاء حيث تقع مؤتة ، وحيث استشهد زيد بن حارثة وصاحباه جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة . هناك نزل أسامة بعسكره فأغار على آبل ، وبث خيوله فى قبائل قضاعة ، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء الله وأعداء رسوله قضاء لا يعرف هوادة ولا رحمة . وكان شعار المسلمين وصيحتهم فى الحرب ذلك اليوم : « يا منصور أمت » .

قضاء أسامة على أعداء الله ورسوله

قتل المسلمون أثناء هذه الغزاة ، وأسروا ، وأحرقوا القرى التى قاومتهم ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا . بذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين فى مؤتة ، وبذلك نفذ أمر رسول الله أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يمعن فيهم قتلا ، وأن يحرقهم بالنار ، وقد أتم ذلك دراكا فلم تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فلما أتمه عاد بالجيش مظفراً إلى المدينة ممتطياً الجواد الذى مات أبوه عليه .

عودأسامة ظافراً لى المدينة

عاد بالجيش الظافر إلى المدينة ، لم يغره النصر باقتفاء أثر أعدائه أو باقتحام تخوم الروم والتوغل فى ديارهم . وعاد وقد زادت حداثة سنه فى جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تذمروا من قبل لإمارته يحدثون مفاخرين بحسن بلائه وعظيم إقدامه ، ويرددون مؤمنين قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

ولم يدر بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه . ذلك أن السياسة التى جرى عليها رسول الله والتى كانت ماثلة فى نفوس المسلمين جميعاً ، كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم ؛ فلا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود أو غير اليهود ممن كانوا يأتمرون بالمسلمين .

وكان ذلك طبيعياً ، إذ كان الروم لا يزال اسمهم يزلزل الشعوب بسعة

إمبراطوريتهم ونفوذ سلطانهم ؛ لم يغير من ذلك ما كان بينهم وبين العرب من نزاع كانوا فيه أصحاب الكلمة العليا إلى السنوات الأخيرة من حياة النبي . ألم يذهب دحية الكلبي بكتاب رسول الله إلى هرقل ، وهرقل في أوج نصره ، في السنة السابعة من الهجرة ، أي قبل وفاة النبي بسنوات ثلاث ، فرأى من قوة الروم وبأسهم ما رأى ! أو لم يذهب اليهود في هذه السنة السابعة إلى فلسطين بعد هزيمتهم في خيبر وفي فدك وتيماء ، وقلوبهم كلها الحفيظة على محمد وعلى من اتبعه ، يأتمرون لتأليب الروم عليهم كيما يقاتلوهم ويظفروا بهم كما قاتلوا الفرس وظفروا بها . لا جرم إذن أن يقف المسلمون من سياستهم عند حماية تخومهم من اعتداء الروم ، وأن يكرّ أسامة ، بعد أن تم له النصر على أعدائه ، راجعاً إلى المدينة ليقف إلى جانب أبي بكر والمسلمون معه ، دون أن يدور غزو الروم بخاطره أو خواطرهم ، ودون أن يتوقع أحد منهم أن هذا الغزو سيبدأ بعد سنتين اثنتين ، يبدؤه أبو بكر بحكم الحوادث ثم يتمه خلفاؤه ، فيكون فيه القضاء على هذه الإمبراطورية الرومية التي ظلت قروناً مرهوبة الجانب تعنو لكلمتها الجباه وتتصدع من هول بأسها العروش .

أبو بكر يتلقى أسامة بظاهر المدينة

عاد أسامة إذن بالجيش الظافر ، وبلغ ظاهر المدينة ، فتلقاه أبو بكر ، وكان قد خرج في جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقائه وكلهم فرح وتهلل ؛ وتلقاه أهل المدينة الذين خفوا في أثر أبي بكر وأصحابه بصيحات السرور والإعجاب والتقدير لبسالته وبسالة جيشه . ودخل أسامة المدينة تحيط به هالة من فخار النصر ، فقصد من فوره إلى المسجد حيث صلى شكراً لله على ما أنعم عليه وعلى المسلمين . وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين ، وقيل سبعين ، يوماً من مغادرته إياها .

يحاول بعض المستشرقين أن يهوّنوا من أمر هذه الغزوة وأن يصغّروا من شأنها ، مع ما كان من اغتباط المسلمين بها وإكبارهم للذين تم لهم النصر فيها . يقول المستشرق « فكتا » محرر فصل أسامة في دائرة المعارف الإسلامية : « وقد بعث انتصار أسامة البِشْرَ في نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الرّدّة ، وأصبح لانتصاره من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقة ، بل عُدّ

فيما بعد فاتحة للحملة التى وجّهت لغزو الشام » . وصحيح أن هذه الغزوة ليست جسيمة بالقياس إلى ما نعرف من غزوات اليوم ، وليست جسيمة بالقياس إلى بعض الغزوات التى تمّتْ فى ذلك الحين . فقد اكتفى أسامة منها بأن دهم القبائل التى فجأها وأن غنم منها دون أن يلقى جيش الروم . لكن الأمر الذى لا ريب فيه أنها كانت بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ، وفى حياة العرب الذين فكروا فى الثورة بهم ، وفى حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم . قال أعداؤهم من العرب الذين تسامعوا بهذه الغزوة «لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تُغير على مَنْ بَعُد عنهم من القبائل القوية » . وانزعج هِرَقْل حين بلغته أنباء هذه الغزوة فبعث جيشًا قويًّا عسكر بالبلقاء . وتلك الحجة البالغة على أن الروم والعرب جميعًا حسبوا حساب المسلمين بعد هذه الغزاة التى جعلت عرب الشمال ، فيما خلا دُومة الجَنْدَل ، لا يلحون فى التحرش بالمدينة والانتقاض عليها .

أثر هذا الغزو فى العرب وفى الروم

على أن الأمر لم يكن كذلك فيما سوى الشمال من أنحاء شبه الجزيرة . رأيت من قبل أن قبائل فى سائر أنحائها نزعت إلى العصيان فى السنوات الأخيرة من حياة النبى ، ورأيت أن جماعة من أهل هذه القبائل ادّعَوْا النبوّة . ولولا الفزع الذى كان يتولى هذه القبائل ويتولى المتنبئين فيها بسبب ما كان النبى يأخذهم به من حزم وما كان المسلمون يبدونه من بأس وقوة إيمان ، إذن لسرت روح الانتقاض فى أنحاء كثيرة . فلما اختار محمد جوار ربه ارتدّت العرب إمّا عامةً ، وإما خاصةً فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، واضطرب المسلمون لفقد نبيهم ولقلتهم وكثرة عدوهم . فلم يكن بدٌّ من سياسة حكيمة حازمة تردّ الأمر إلى نصابه ، وتنصر دين الله فى إبّان نشأته .

ردة العرب إما عامة وإما خاصة

وهذا ما صنع أبو بكر حين جرّد أبطال المسلمين لحروب الردّة ، وللقضاء على الثائرين بدين الله وبخليفة رسوله .